صفحات مطوية من ذكريات المحاكم والمحامين في حلب

بقلم فاضل السباعي

صدر في حلب مؤخرا كتاب قيم عنوانه « من ذكرياتي في المحاماة في سوريا » (١) للمحامي فتح الله الصقال . وتجتمع في المؤلف صفات ثلاث بارزة : محام ، وكاتب ، وانسان كبير القلب .

فهو محام له الصولات المشهودة في عالم القضاء في مصر وسورية ، وكم له من فتح جديد في اجتهادات قضائية انارت السبيل لدعاوى مشابهة لاحقة . وهو كاتب اديب سليم الحس سخي القلم يجمع شوارد النفس في قطع ادبية يتوج بها جيد مجلته « الكلمة » (١) . وهو ، بعد هذا ، انسان كبير القلب لا ينطوي الا على محبة الناس والشغف باعمال البر وهو الذي يرعى « جمعية مشاريع الكلمة الخيرية بحلب » (٣) .

هذه الصفات الثلاث البارزة في « صاحب الذكريات » ، قادت اليه يوما كرسي الوزارة (٤) . ولما كان اديبا كاتبا يضن بتجاربه الكبرى ان تظل طي نفسه ، فقد انشأ كتابا وسمه بـ « من ذكريات حكومة الزعيم حسني الزعيم » (٥) ، وطلع به على الناس ليقرأوا كلمة حق تعلن في ذلك العهد الذي انطوى وباد .

ولقد شعر ، في العشر السنين الاخيرة ، بحاجته الى الراحة بعد وعثاء العمل بذله في ريعان الشباب وصدر الكهولة . فخلد الى الراحة في دارته الجميلة الهادئة في « شارع السبيل » يستعيد ذكرياته عن المحاكم والمحامين سعيدا بما ادى من واجب وما حقق من نجاح . الا ان قلمه العطاء ابى الا ان يصوغ تلك الذكريات ادبا ممتعا وتاريخا حقيقا بالدرس والمراجعة ، فكان ان طالعنا بهذه « الذكريات » (٦) مرآة صادقة من نفس اديب محام اخلص للقلم والمحاماة معا بما صور من ذكريات واسرار عن المحاكم والمحامين في حلب الشهباء خاصة .

واراني معنيا بهذا الكتاب عنايتين : فهو كتاب ادبي اولا ، وهو ثانيا يحكي شئون المحاماة ، المهنة التي هجرتها بالامس غير آسف ، فاذا بي اشعر بالاسى الشديد على فراقها وانا اطالع هذه الذكريات ... ان صاحبها قد اهله نبوغه لان يقع عليه الاختيار للدفاع عن الزعيم الخالد ابراهيم هنانو يوم قبض عليه الفرنسيون فقدموه للمحاكمة قصد سوقه الى ساحة الاعدام .

كان هنانو قد غادر سورية الى فلسطين فرارا من مطاردة الفرنسيين له بعيد استيلائهم على البلاد السورية . ولما عقدت السلطات الفرنسية في سورية مع السلطات الانكليزية في فلسطين اتفاقا في العام ١٩٢١ بتبادل المجرمين في كلا البلدين ، قدم الانكليز هنانو لقمة سائغة الى الفرنسيين متخطين بذلك العرف الدولي الذي لا يجيز تسليم اللاجئين السياسيين . وفي شهر آب من ذلك العام شاع في حلب ان هنانو قد وصلها موقوفا وانه في السجن العسكري المعروف بـ « خان استانبول » في « السويقة » .

واختير صاحب الذكريات ، المحامي الشاب (٧) ، للدفاع عن هنانو زعيم الشعب .

كانت التهم المنسوبة الى هنانو سبعا ، ترتكز كلها على تهمة واحدة : تشكيل عصابات من الاشقياء للفتك والسلب !! فتجلت صعوبة المهمة التي القيت على عاتق وكيله الشاب .

وقام صاحب الذكريات يدافع ، تحدوه امنيتان : نجاح دعواه كمحام ، وانقاذ رأس زعيم شعبه كوطني غيور .

وجاء في مدافعته الابتدائية الاولى امام محكمة عسكرية اعضاؤها الخمسة من الفرنسيين ، انه ليس للمحاكم العسكرية حق النظر في هذه القضية ، لان البلاد في حالة سلم لا في حالة حرب ، وليس للمحكمة العسكرية ان تحاكم في حالة السلم الا العسكريين ، وهنانو ليس عسكريا.

واختلت المحكمة ، لتعلن باجماع الاراء ردها المدافعة وصلاحيتها للنظر في قضية هنانو (٨) .

ومما جاء في المدافعة الابتدائية الثانية ان تسليم ما يسمى بالمجرمين السياسيين لا يجوز بحال . وانما قصد في الحقيقة ، من عقد اتفاق تبادل المجرمين ، تسليم هنانو بالذات ... واختلت المحكمة ، لتعلن رد المدافعة باربعة اصوات من خمسة ، وقد كان رد الاولى بالاجماع (٩) .

ثم دخلت المحكمة في اساس الدعوى . وجعلت تستجوب الزعيم .

قال رئيس المحكمة :

ـ انت متهم بتشكيل عصابات من الاشقياء للفتك والسلب !

اجاب هنانو بملء الجراة :

ـ انا ثائر ادافع عن وطني . ولم تكن غايتنا الفتك والسلب ، والا لقاومنا الشعب وسحقنا سحقا . انني متهم سياسي . ولو كنت مجرما عاديا ، لما فاوضني ممثلكم الجنرال جوبو لعقد هدنة ومبادلة الاسرى اني ثائر سياسي ، وآنبرا من كل مجرم سفاك .

ـ فانت تتنصل من المسؤولية ؟

ـ ان من قاوم الانتداب الفرنسي لا يتنصل من المسئولية !

---

(١) نشرت الكتاب مجلة « الكلمة » في ٣٦٢ صفحة وقدمته هدية لقرائها ، وطبع طباعة فاخرة في مطبعة « الضاد » في العام ١٩٥٨ .

(٢) مجلة شهرية ، صدر عددها الاول في العام ١٩٢٩ ، وما تزال .

(٣) اسست هذه الجمعية « مستشفى الكلمة » بحلب ، الذي يعتبر بحق من مفاخر الاعمال الخيرية في الشرق العربي جميعا .

(٤) تسلم وزارة الاشغال العامة والمواصلات في العام ١٩٤٩ ـ عهد الزعيم حسني الزعيم .

(٥) نشر دار المعارف بمصر في العام ١٩٥٢ .

(٦) جرى وضعها في الفترة ما بين ١٤ نيسان (ابريل) حتى ٣٠ حزيران(يونيو)١٩٥٨ .

(٧) كان صاحب الذكريات اذ ذاك ابن سبعة وعشرين ربيعا .

(٨) الكتاب : الصفحة ٨٦ .

(٩) الكتاب : ٨٩.

ـ ومن اضطرك الى ان تحارب ؟

ـ عندما اهاجم ، اغدو مضطرا للدفاع عن نفسي .

ـ لو بقيت آمنا في منزلك ، لما وقفت هذا الموقف !

ـ هذا اجتهاد خاص . ولي اجتهادي . ولا يلام المرء على اجتهاده (١٠).

واستمعت المحكمة الى شهود الاثبات وشهود الدفاع طوال خمسة ايام متواصلة .

وكان ما ختم به النائب العام مطالعته : « لو كان لابراهيم هنانو سبعة رؤوس بعدد جرائمه السبع ، لطلبت اعدام رؤوسه السبعة ... (١١) . وطالب باعدامه .

وقام صاحب الذكريات يدافع عن زعيم الشعب ، وقد تعلقت به اعين وقلوب . نفى عن موكله ان يكون قد قام « باتفاق جنائي » مما يعاقب عليه القانون ، فركنا الاتفاق : المادي والمعنوي ، غير متوفرين في هذه القضية . ثم خلص الى القول :

ان هنانو قائد ثورة اعتنق رفاقه مبداها . ولو كان من « الاشقياء » ـ كما قال النائب العام ـ لما اجرى معه القواد العسكريون الفرنسيون المفاوضات الرسمية ، ولما دعاه الجنرال جوبو الى تناول طعام الغداء على مائدته . وعندما ابلغ الكولونيل فوان هنانو رغبة الجنرال جوبو بالاجتماع به ، عرض ان يبقى رهينة لدى رجال هنانو ريثما تتم المقابلة بسلام ، فكان من نبل هنانو وسمو اخلاقه ان رفض الرهينة قائلا انه واثق بالشرف العسكري الفرنسي ...

لقد قام هنانو بثورته « مدفوعا بعاطفة وطنية نبيلة ، تماثل العاطفة التي هزت فرنسا ، من اقصاها الى اقصاها ، حينما احتلت المانيا في حرب ١٩١٤ ، بعض البلاد الفرنسية ، فابى الفرنسيون ان تداس ارض الوطن ، وهبوا يقاتلون ويستبسلون في الكفاح ، حتى خرجت فرنسا من حومة النضال منتصرة ظافرة « ... » ان الوطنية ليست وقفا على فرنسا وابنائها ، وانما هي عاطفة طبيعية متغلغلة في اعماق النفوس ، تشعر بها كل امة من امم الارض ، ومنها الامة السورية » ....

« وقبل ان يعود صوتنا الى السكوت ، نتقدم اليكم برجاء اخير ، وهو ان تنسوا لحظة واحدة ، انكم ضباط فرنسيون ، وان تتجردوا لحظة واحدة ، عن بزاتكم العسكرية ، الانيقة ، وان تعودوا رجالا عاديين ، وان تقدروا المسئولية الثقيلة الملقاة على كواهلكم ، وان تخوضوا الى اعماق ضمائركم ، ثم تصدروا قراركم » ، ولن يكون الا البراءة ، « لان شرف فرنسا يابى الا ان يراعي ما قطعته لهنانو من تعهدات صريحة » (١٢) .

وسئل هنانو عن قوله الاخير ، فقال :

« انني واثق بعدالتكم ، بالرغم من الخصومة القائمة بين بلادكم وبلادي . واذا كانت فرنسا تتغنى بالحرية والعدالة ، فان سورية تنشد الحرية نفسها ، والعدالة نفسها » (١٣) .

واختلت المحكمة للمذاكرة ، والامل في البراءة ضئيل ضئيل ، لتنعقد بعد ذلك وتعلن البراءة ... باكثرية ثلاثة اصوات ضد اثنين (١٤) . ودوت قاعة المحكمة بالتصفيق الحاد . وسرت الهتافات في ارجاء دار العدل سرى الكهرباء . وجعلت النساء يزغردن ، على طول الطريق المؤدية الى دار الزعيم في « باب الجنين » ، ويمطرن الموكب ، من الزعيم ومحاميه والصحب من المجاهدين ، بماء الزهر وعطر الورد (١٥) .

*

في خريف العام ١٩١٢ نهد صاحب الذكريات الى القاهرة قصد التحصيل في كلية الحقوق الفرنسية . وعمل في الوقت ذاته ، مضيا مع هوايته الادبية ، محررا في جريدة « البورص اجبسيان » ، ثم في جريدة «البيراميد » التي كانت تصدر باللغة الفرنسية ايضا . وفي مدينة « ايكس » القريبة من مرسيليا ، قدم امتحانه الاخير في كلية الحقوق عام ١٩١٥ . ثم انتسب الى سلك المحامين في القاهرة ، وتمرن في مكتب المحاميين الكبيرين الاخوين محمد رمضان وعلي رمضان الكائن في بناية جريدة الاهرام . وظل يترافع امام محاكم مصر طوال اربع سنوات . حتى اذا اغتدي من ارض الكنانة عوده ، وآذن ربيع ١٩١٩ بالحلول ، شد رحاله الى ربوع الوطن الام : حلب الشهباء .

(١٤) مما يجدر ذكره ان السلطة الفرنسية العليا سرعان ما اوعزت الى الاعضاء الثلاثة الذين صوتو بالبراءة ، بالرحيل الى فرنسا فورا !

(١٥) كان ابراهيم هنانو زعيما للشعب بلا منازع ، واميرا للمجاهدين ايام النضال الحق ، عهد ان كان المستعمرون في قلب مدننا وشوارعنا . قارع الفرنسيين غير مرة . ووافته المنية في العام ١٩٣٥ ، ودفن في مدخل حلب الغربي الذي عرف فيما بعد بـ « قبر هنانو » .

(١٠) الكتاب : ٩٠ و ٩١ .

(١١) الكتاب : ٩٣.

(١٢) الكتاب : ٩٤ ـ ٩٩.

(١٣) الكتاب : ١٠٠.

هذا الشهر يصدر :

مدينة بلا قلب..

شعر

للشاعر العربي المجدد الاستاذ

احمد عبد المعطي حجازي

دار الآداب

وصاحب الذكريات يملك ذاكرة واعية وملاحظة ثاقبة . فهو يستحضر في كتابه احوال المحاكم والقضاة في حلب ذياك العهد بصدق فني ما اشد حاجتنا اليه فيما نقرأ من كتب الذكريات تدون بعد مضي عقود من السنين.

كان القضاء في مصر متقدما عما كان عليه في حلب ، والمحاكم منظمة ، والقضاة والمحامون يرتدون ثوب المحاماة فيملأون النفس تهيبا واحتراما ولم يكن الامر كذلك في الشهباء التي كانت تغط في سبات ظل الحكم العثماني . وعندما عاد صاحب الذكريات الى حلب ، قام بجولة في ارجاء دار العدل ، فشاهد ما لم يكن يتصور وهو الذي مارس المحاماة امام قضاء كان حريصا على حسن النظام ... راى ، في غرفة صغيرة مهملة في « السراي القديمة » ، رجلا مسنا عاري الراس عليه قميص ملون بلا ربطة عنق ، وقد طوى ساقيه تحت جسده ، وامامه منضدة صغيرة من نصف متر حافلة بالاوراق المبعثرة ، والى جواره اركيلة يتلذذ بها : كان الرجل « حاكم الصلح » (١٦) ... « ورحب بي اجمل ترحيب ، وامر لي بكاس من السوس ، ملأها سواس كان يدخل الغرفة ويخرج منها ، بين الحين والحين » (١٧) .

ولندع صاحب الذكريات يسترسل ، فيقول :

«وانتقلت الى غرفة اخرى ، تطل على الباحة الكبرى ، وكان يجلس على منصة القضاء فيها ، شيخ وقور ، وكانت هذه الغرفة اكبر مساحة من الغرفة الاولى ، وفيها مقعد طويل يجلس عليه المستمعون .

« جلست استمع ، فعلمت حالا ان الجلسة جزائية ، والحاكم يستجوب رجلا ، متهما بسرقة بعض الخراف من جاره . فانكر المتهم . فقال له الحاكم : اذا بقيت مصرا على الانكار ، فستساق الى المشنقة فورا . ولكن المتهم اصر على الانكار ، فصاح الحاكم بالمحضر : اذهب وهيء المشنقة ، حتى اذا تم نصبها ، قمنا بتنفيذ الحكم .

« فلما سمع الرجل بذلك ، خارت قواه ، وانهارت اعصابه ، واعترف بالجرم المنسوب اليه . فقال له الحاكم : لقد رحمتك هذه المرة ، وحكمت عليك بالسجن ستة اشهر فقط ، واذا عدت الى السرقة ، فليس امامك الا المشنقة .

« وفهمت ان الشيخ الحاكم مشهور بنكاته الظريفة ونوادره الطريفة ، وكان له في استجواب المتهمين اسلوب خاص ، يوصله الى معرفة الحقائق بسهولة » (١٨) .

ولعل اطرف ما في هذا الباب قول صاحب الذكريات عن ذلك الزمان الغابر :

« ولما رغبنا في ان نزور بعض الزملاء للتعرف بهم ، فهمنا ان فريقا من اخواننا المحامين يجتمعون في غرفة واحدة ، اتخذوها مكتبا لهم في احدى الخانات ، وان فريقا اخر منهم ، يستقبلون زبائنهم في دكاكين ، بعضها في باب الفرج ، وبعضها الاخر في شارع الخندق ، وفي باب النصر (١٩) .

(١٦) « القاضي الجزئي » بالاصطلاح القانوني المصري .

(١٧) الكتاب : ٥١.

(١٨) الكتاب : ٥٢.

(١٩) نرجو الا يحسبن القارىء ان الوضع في حلب ما زال على ما كان عليه . فان حال المحاكم اليوم على غاية من النظام والتنظيم ، وان للمحامين مكاتبهم التي لا تقل فخامة عما هو عليه في ارقى العواصم العربية وهم والقضاة يرفلون في ثوب العدالة بمعنييه .

« هنالك ، ذكرنا مكاتب المحامين في القاهرة ، وتمثلنا ما فيها من رياش انيق ، ومكتبات عامرة بانفس الكتب الحقوقية ، من قديمة وعصرية ، حتى ليخيل الى من يزور هاتيك المكاتب ، انه في وزارات رسمية ، والحق ،انه كان في كل مكتب من مكاتب المحامين البارزين ، من خمسة الى عشرة محامين معاونين ، وطائفة من الكتبة المساعدين » (٢٠) .

ولما اتخذ المحامي الوافد من مصر مكتبا له دارا من اربعة غرف في حي « قسطل الحجارين » وجهزه بالرياش على شاكلة مكاتب المحامين في القاهرة ، قال له احد كبار المحامين اذ زاره مازحا : « لقد فتحت علينا بابا جديدا ، وسنضطر الى ان نحذو حذوك ... » (٢١) .

ويستطرد صاحب الذكريات فيصور ، في تضاعيف كتابه ، جوانب من العواطف التي تنطوي عليها النفس البشرية : من خير وحب ، ومن شر وطمع وبغضاء . ان المحامي ، بحكم مهنته ، متاح له النفاذ الى اعماق هذه النفس العجيبة وسبر غورها حيث تصطرع عواطف الخير والشر . ولعل صورة من هذا الصراع ان يعمد موسر عجوز الى التنازل عما يملك ، وتقدر قيمته بمائتي الف ليرة عثمانية ذهبا ، الى كل من ابني اخيه المتوفي نعوم ونصري ، حارما بذلك ارملته ماري وثالث ابناء اخيه اميل .

وكان من الطبيعي ان يراجع المحرومان القضاء ، موكلين في ذلك صاحب الذكريات . فتنشب في ساحة القضاء معركة قانونية تستغرق ثلاثة اعوام ويشترك فيها كبار المحامين من حلب وبيروت والقاهرة وباريس ..

(٢٠) الكتاب : ٥٤.

(٢١) الكتاب : ٢١.

صدر حديثا : عن دار الآداب

الشاعر الكبير نزار قباني

في دواوينه الثلاثة النافذة

أنت لي

سامبا

طفولة نهد

في طباعة انيقة مترفة ستكون زينة لكل مكتبة

تنتهي الى ابطال صك التنازل ، والى تطبيق احكام الارث في الشريعة الاسلامية على تركة المتوفي لا احكام القانون البيزنطي (٢٢) .

وكان بعض الناس ممن غرر بهم الطمع يلجأون الى الاساليب الاحتيالية لاغتصاب اراض من وقف غني يسمى « وقف العثمانية » (٢٣) . فلما عهدت الاوقاف الاسلامية الى صاحب الذكريات باقامة الدعاوى على مغتصبي اراضي الوقف بغية استردادها ، واحس المغتصبون بالطوق يحز رقابهم ، عمدوا الى اغراء المحامي ، خصمهم الالد ، بخمسة الاف ليرة عثمانية ذهبا ليقوم باجراء ما ينجيهم من رد الاراضي الى الوقف ، فخاب فالهم (٢٤) .

ولما ردت الاراضي المغصوبة الى الوقف (٢٥) ، داعب الطمع مدير الاوقاف نفسه ، فاوفد الى صاحب الذكريات من يجس نبضه ويقول : « ان مدير الاوقاف يرغب في ان يعرف مقدار حصته من الاجرة الكبيرة التي ستدفع لكم ، فاجاب قائلا : « اننا لم نتعود ان نشارك احدا في اجرنا ، فان كنا نستحق اجرا ، قبضناه غير منقوص » .

ولم يرق الجواب لمدير الاوقاف . فامتنع عن صرف الاتعاب للمحامي عن جهد بذل في ساحة القضاء فاستغرق سبعا من السنين . وقاد من وراء ستار حملةموجهة في صحف حلبتندد باطماع نسبوها الىمحاميوقف العثمانية .... وذلك لقاء خمس وعشرين ليرة سورية قبضها محرر كل جريدة لشن هذه الحملة المأجورة (٢٧) .

واطرف ما قرأنا ان رئيس احدى المحاكم ، واسمه المسيو شارير ، قام بينه وبين صاحب الذكريات شيء من عدم الانسجام . ومرة ، قدم المحامي استدعاء (٢٨) بطلب حجز . فرده الرئيس تحت تأثير اهوائه الشخصية فاوعز المحامي الى موكله ، حرصا على مصلحة هذا الاخير ، ان يوكل محاميا غيره لاعتقاده بان المحكمة ستقرر الحجز اذا تسلم الدعوى محام اخر .

وفي اليوم التالي تقدم المحامي الجديد الى المحكمة . فقبله الرئيس ، وسمع اقواله دون ان يساله عن وكالته ، واصدر في الحال قرارا يقضي بالحجز المطلوب .

(٢٢) لعل من الشائق ان نذكر ان الاستاذ الصقال ، وكيل كل من الارملة وابن الاخ اميل المحرومين ، قد تقاضى من موكليه في ختام الدعوى التي تكللت بالنجاح ، الاتعاب المتفق عليها وهي عشرة بالمائة مما تحكم لهما به المحكمة ، وقد حكمت بمائة الف ، فكان نصيبه عشرة الاف ليرة عثمانية ذهبا ... فقط .

(٢٣) نسبة الى عثمان باشا حاكم حلب التركي في القرن الثامن عشر الذي وقف كل ما يملك من اراضي واسعة واملاك على عمل البر ونشر الثقافة . وقد شيد على نفقته الخاصة جامعا يعد من اجمل جوامع حلب واروعها فنا وهندسة ، وبنى بجانبه مدرسة واوصى ان يسكنها ثلاثون تلميذا يتناولون طعامهم فيها بدون مقابل ، لا يفرق بينهم مفرق سواء اكانوا حلبيين او غير حلبيين ، وعين للمدرسة وللجامع خطباء يتقاضون مرتباتهم من ريع الوقف .

(٢٤) الكتاب : ١٩٨ .

(٢٥) قدرت قيمتها في حينه بـ ١٤٤٢٥٧ من الليرات الذهبية .

(٢٦) كان محامي الوقف قد ابرم مع الاوقاف اتفاقا يتقاضى بموجبه عشرة بالمائة من قيمة كل ارض يحكم بردها الى الوقف .

(٢٧) الكتاب : ٢٣٤ .

(٢٨) اي « عريضة » بالاصطلاح القانوني المصري .

« فاعتبرت هذا التصرف الشاذ ، اهانة فادحة لي ، ولمهنة المحاماة مما ورأيت ان اطلب الرئيس شارير الى المبارزة ، فكلفت صديقي ، الدكتور كبرييل شفالييه ، رئيس جراحي مستشفى القديس لويس بحلب ، والمسيو رينه سالندر ، نائب قنصل فرنسا ، ان يتصلا بالرئيس شارير ، وان يطلبا منه ان يختار شهوده ، وان يحدد زمان المبارزة ومكانها. فقام كل من الدكتور شفالييه والمسيو سالندر بهذه المهمة ، وقابلا الرئيس شارير ، فرفض المبارزة . ووفقا للقواعد المتبعة في مثل هذه الحال حرر بتاريخ ٢٣ ايلول ١٩٢٧ ، ضبط سجل فيه الرفض (٢٩) .

تلك صفحات مطوية من ذكريات محام حلبي عن المحاكم والمحامين فيها ذياك العهد ، وعن قوى الخير والشر تصطرع ابدا في النفس البشرية .

الحق ، اني ما شعرت بالاسى على فراقي المهنة شعوري به وانا اطالع هذه الذكريات . للقد شهد احد الاطباء جلسة ترافع فيها الاستاذ فتح الله الصقال صاحب الذكريات وافصح وبان ، فاذا الطبيب يتقدم اليه في ختام المحاكمة ويهمس في اذنه :

ـ اذا عدت الى الدنيا مرة اخرى ، فسأختار مهنة المحاماة ... (٣٠)

الا احبب بمهنة يستطيع صاحبها ، ان هو اخلص ، ان يأخذ بيد المظلوم وينسل القوادم من جناح الظالين .

حلب — فاضل السباعي

(٢٩) الكتاب : ٣١٥ .

(٣٠) الكتاب : ١٤ .

هل قرأت

ديواني الشاعرتين الكبيرتين

نازك الملائكة وفدوى طوقان ؟

قرارة الموجة

وجدتهـا

اطلبهما من

دار الآداب